٨

اشعاع النفس

كان طريف يهوى البحر ، ومصارعة الأمواج . فما أن ودع العام الدراسى واستقبل العطلة الصيفية ، حتى طفقنا نتنسم حياة المتعة والانطلاق ، فى ساحل «الباسك» الساحل الجميل الذى تهطل فيه الأمطار صيفا فتلطف حرارة الجو فيه وتكسو أرضه مطارف موشاة بشتى الورود والرياحين ، وما إن بلغنا (بيدار) ولذ لنا سكونها الصامت ، حتى آثرنا الاقامة بها ، ونزلنا فندقا من فنادقها القائمة ، بين الأعشاب على ربوة تطل غربا على البحر ، وتمتد فى شرقها سلسلة من الهضاب ، والحقول الخصبة الجميلة التى تعهدتها يد الخالق والمخلوق ، فجاءت آية فى بهجة المنظر ، وحسن الانتاج .

ولما قصدنا البحر كان العلم الأحمر يرفرف على مدخل (البلاج) وكان المحيط الأطلسى شأنه فى أكثر الأوقات

هائجاً مضطربا ، يدوى هديره فى الفضاء دوى أصداء الرعد فى أمواج الغيوم . والرائد البحرى يطوف على المستحمين يحذرهم التيارات المختلفة .

بيد أن طريفا جرىء مغامر بالفطرة ، وأى امرىء طبع على الجرأة والمغامرة ، يستطيع أن يعصى هواه ، ليعتصم بعقله ، فلا يلقى بنفسه إلى التيار ، إن اصطخاب الأواذى ، وانذار الرائد ، وتحذير العلم ، لم تردعه فاندفع يغوص فى اليم ويطفو ، ترفعه موجه وتخفضه أخرى ، وما تزال ترفعه وتخفضه حتى أدركه الاعياء ، فانقلب على المتبارين ، والمتباريات من الخارجين على النظام والخارجات .

وكان بين هؤلاء الخوارج ، يافع وسيم الطلعة ، مشيق القد ، عذب المنطق ، حلو الحديث . فلما أبصر طريفا ، وسمع شدى من أنبائه ، أنس به ، ورغب إلى أن أقدمه له ، فأخذته اليه وجلسنا على الشاطىء نتناول

بالحديث شتى المواضيع ، فرأيت فيه من الظرف واللطف وحسن المعاشرة ، ما حببه إلى وأدناه من نفسى . فما أن ودع وإنصرف حتى قلت لطريف لعل هذا الرفيق الجديد أعجبك ونزل من نفسك منزلة حسنة ، فهو لعمرى ممازج لك وانكما لتميلان معا إلى اللهو والتسلية البريئة . فنظر الى وقال متهكما : كيف لا ينزل من نفسى هذه المنزلة ، وهو علم من أعلام اللؤم ، وبطل من أبطال المكر ، والسفالة والخداع . لقد غرتك الفاظه المنمقة ، واستهواك كلامه المعسول ، وسحرك ما تظاهر به من نبل العواطف وكرم الشمائل . فاحببته وراحت نفسك تتوق إلى محادثته ولو أنك تفحصت أسارير وجهه وأمعنت فى عينيه ، لما اقتنصك بشباك لسانه ، وسراب عواطفه ، وحركاته ، حتى أصبح قادراً على استمارك .

إن اللسان طيع مرن ، فى مقدور صاحبه أن يقلبه كيفما شاء ، وينطقه ما شاء ، فلا تثق بما يقول ، ولا تصدق ما يروى ، بل انظر دائماً إلى العينين ، فالعينان صادقتان ،

لا تكذبان ؛ وأمينتان لا تخونان ؛ وشفافتان لا تحجبان ما وراءهما مما سيكون من أمر صاحبهما وما كان .

يقينا أن الأقدمين الذين قالوا : (إن العين مرآة النفس) لم يخطئوا ؛ فكل ما يحمل المرء بين جوانحه من خصال وعواطف تنعكس جلية على عينيه وتنطلق مع النظرات ؛ إن النبل ؛ واللؤم والحب والبغض والنباهة والغباوة ، وما إلى ذلك من مظاهر النفس ، لتنطق كلها بطرف العين وتتكلم بشعاع النظرات ، فهذه الصفات على ما أعتقد كائنات حساسة تنمو أو تضعف ، تصفو أو تكدر تبعا لعامل الوراثة والبيئة ، وحال الجسم وسوى ذلك من الأسباب المعروفة والمجهولة ، واعلم أن راسبوتين وغيره من أمراء الفراسة الذين ملأ اسمهم التاريخ لم يكونوا يتعاطون السحر أو يناجون الأبالسة ، بل كانوا رجالا أدقت الطبيعة ملكة الحس ، والملاحظة فيهم ، فغدوا بنظرة يلقونها على عيون من يلقون يستكشفون سرائرهم . فلو كنت واعى القلب ؛ دقيق الملاحظة ،

لقرأت فى عينى رفيقك ماتنطوى عليه نفسه ولاستشففت خبث روحه ؛ من نظراته ، ولـكن من أين لك ذلك ، وأنت من أغبياء المبصرين الذين أنار الله عيونهم وأظلم قلوبهم ، فباتت عيونهم :

كالسيف يزهى بجوهره وليس يعمل إلا فى يدى بطل

لقد خاطبتك نظرات هـذا الرفيق ، فلم تفقه منها خطاباً ، ولم تدرك لها جوابا ، وما ذلك بعجيب فقد ظلت الجرائم ، وهى تملأ الـكون أجيالا لا وجود لها فى نظر العلماء ، والجهلاء والعمى منهم والمبصرين ، على السواء ، حتى قيض الله للبشر « باستور » ذلك العالم الضخم الذى كشفها لهم ووقاهم شرها المستطير .

وخليق بك أن تعلم أن إشعاع سرائر النفس يختلف لدى الأفراد اختلافا بيّنا ، فمنهم من تبدو خصاله ضئيلة ، هزيلة ، ومنهم من يرسلها أمواجا كثيفة ، شديدة الفاعلية ، والتأثير ، وقد تتغلب إحـدى الخلال على سواها فتحجبها

عنا وتستلفت هي وحدها انتباهنا ، شأن لؤم هذا المخلوق ، الذى طغى على ما لديه من فضائل ونقائص ، وانطلق يتطاير كالشرر من عينيه وفيه ، حتى خلتنى أبصره فى نبرات صوته كما تبصره فى إشعاع عينيه .

فقلت له : « لك الويل يا طريف » ألم تنهنى الساعة هـذه عن أن أصغى إلى أقوال الناس ، وتتهم اللسان بأنه ممثل ماهر يلبس لكل حال لبوسها ويتفنن فى اختلاق الأكاذيب وتنميق الأباطيل » .

قال : « ما أغلظ ذهنك يا صديقي وأسقم فهمك : إنى حذرتك مكر اللسان ، وأراجيفه لا صوت الانسان وأحاسيسه ، فالصوت المنتظم ، الذى به يعبر المرء عن مقاصده ، يتألف من نبرات ، ونغمات لا عديد لها ، فهذه النبرات وتلك النغمات هي التى تكشف كالنظرات عما له من مزايا وعيوب ، وتزينها قوية أو ضعيفة ، وفاقا لقوة الاشعاع ، أو ضعفه فى نفسه . ذلك الاشعاع الذى يتجلى فى كل حركة من حركات الانسان بل فى مجرد وجوده .

بيد أنى لا أستخدم حسى ، ولا أجهد فكرى فى نقد الضمائر ، وتحليلها ، إلا نادراً . فالعمر عندى ، أعز من أن أريقه بالنقد والتحليل . إنى عشيق الحياة أحبها ، وأذوب شوقاً فى حبها ، فلم لا أوجه قواى كلها إلى اجتناء قطوفها السامية بدلا من استنفادها فى استشفاف نفوس لا يوحى أكثرها إلى غير ما أوحى هذا العمل الخبيث من كراهية واشمئزاز» فقلت له: « لاريب فى أن المنطق الصرف حليفك ياطريف ، ولكن يعز على أن أرى رأيك فى فتى مهذب معشار كالذى تتحدث عنه ما لم تنبئنى بذلك فعاله ، لا شعاع عينيه ، ونبرات صوته . فلما خبرته تيقنت أن هذا الفتى المهذب المعشار ، وغد من الوزن الثقيل وانه إن توصل يوماما بطرقه ونبل مظهره . إلى قلب الأمة التى ينتمى اليها . وصوله إلى قلبى . فانه لا محالة ماص دمها . كما مص استافسكى دم المجتمع الفرنسى وقوض أركانه .

وحينئذ قلت في نفسى : إذا قال المبصرون أن العين

مرآة النفس ، فان من حق العمى أن يقولوا « ان الصوت صداها بل مجهرها . »

أما طريف فازال يصارع أمواج المحيط ، ويداعبها حتى الرمق الأخـــير من الصيف حيث قفل الى باريس، تحوطه زمرة من الأوانس اللاتى تعرف اليهن ، وتمـكنت بينه وبينهن روابط الألفة والمودة فى ساحل الباسك .